رأيت اللّٰه

بقلم: د. محمد نجيب عبد اللّٰه

يرى الإمام العارف قطب زمانه محمد بن عبدالجبار بن الحسن النِّفَّري -كأي صوفي لا يشغله سوى الله، ومعرفته، وطرق الوصول إليه، والسباحة في تيار نوره الصافي، الذي ليس كمثله نور- أنه لا طريق إلى ذلك سوى بالتجرّد عن النفس والجسد، والانخلاع من النفس والجسد، إذ يقول له ربه: «أنا الله لا يُدخَل إليّ بالأجسام».

هكذا مررت أنا -أبعد الكائنات عن التجرد- بتلك التجربة الفريدة في حادثة وفاة وشيكة لصديقة عزيزة لم تتوطد علاقتي بها سوى منذ فترة قصيرة، فعلمت عنها وعن ظروفها الشخصية ما يثير الغثيان عن سخف البشر أحيانًا حين يظنّون أن أنفسهم الضعيفة الهزيلة بمنأى من انتقام الله حين يشاء.. فطليق هذه الصديقة العزيزة كان النموذج البشري الصرف لنكران الجميل والتنصّل من المسؤولية، بل واشتهاء الأذى للآخرين بشكل ربما استقاه من إبليس شخصيًّا ذات يوم!!

لم يكن هذا هو الأمر، بل إن الظروف لم تترك هذه الصديقة في حالها حين أصابها المرض، وصارت تعاني الشحوب والأنيميا بشكل استوجب معه أن يتم علاجها بعقار الحديد السائل عبر المحلول الوريدي، وهو أمر -لو تعلمون- خطير. بالطبع لخبرتي الطبية فقد قصدتني الصديقة تلتمس مني المساعدة، وقد طمأنتني أنه قد سبق لها أن «علّقت» محلول الحديد عدّة مرات قبل الآن، ولم تحدث لها مشكلات، ولكم كنت واهمًا حين اطمأن قلبي وعقلي إلى مبلغ علمي! ولم أكن أعلم ما يقوله النفري عن كون العلم مطية ودابة؛ تركبها لهدفك.. وأخطر الخطر أن تدعها هي التي تركبك وتقودك، وتجعل من نفسها هدفًا لك!!

أخذت كل الاحتياطات، فأعطيتها جرعات وقائية من مضادات الحساسية والكورتيزون، جعلت المحلول بطيئًا وغطّيته، كيلا يتفاعل مع الضوء، بل واختبرت جرعة صغيرة منه في البداية قبل أن أشرع في وضع كمية المحلول المطلوبة لها، وعلى مدار ساعات ثلاث كان الأمر هادئًا والبحر صفحته رائقه، كأنها بشرة طفل رضيع، حتى بدأ الأمر كلّه بشكل متسارع، اشتكت الصديقة أولاً من إحساس بالغ بالفوران، أعقبه هرش شديد وطفح جلدي، أسرعت بإعطائها العقاقير اللازمة وأوقفت المحلول، إلا أن التفاعل المتسارع كان قد بدأ، وفتيل القنبلة الموقوتة اشتعل، لم يستجب الجسم لمحاولات العلم، فتسارعت نبضات قلبها إلى حد مخيف، بدأت تشكو من آلام مبرحة بالجسد وخصوصًا بالصدر، بدأت في التوتر مع مساعدتي بالعيادة، وأنا أفكر في أطفال ثلاثة بلا أب ينتظرونها بالمنزل، حقنة تلو الأخرى عبر أوردتها علّ الحريق يخمد، لكن هيهات هيهات، سبق السيف العذل؛ بدأت كل مؤشراتها الحيوية في

الانخفاض، ونسق نبضها يختل، ثم توقفت عن التنفس، وخمد نبض قلبها.

فترة صمت قاتلة، ربما لأنها لحظة صمت الموت حين يتمكّن من فريسته!

أبدأ في صراع محموم مع المحتوم، تنفس صناعي، أضغط على صدرها في قوة وحسم، مساعدتي تضغط حقيبة «الأمبو» التي تدفع بالهواء دفعًا إلى رئتيها، لا نبض!! لا حياة!!

الدمعة المتحجرة لا تنزل من مقلتيّ، والشلل يشمل أطرافي..

من أعمق مكان في روحي أصرخ:

«ياااااا الله...» « يااااااااا... الله...»

تختفي الصور والمعالم من أمام عيني، لا تُجدي الحواس والمنطق وأنت في المعيّة، لا يجدي التحليل العقلي ولا الأدوات المعملية في إدراك العالم الإلهي، فلا بد لك من الخروج من ذلك الجسد العاجز، القاصر، الذي يبدو كسجن للأرواح.

لا أسمع بكاء مساعدتي ولا انهيارها..

أشعر ببرودة بالغة، إذ يشملني الضوء القاهر كقنبلة من فيض النور..

« ياااااا الله...ياااااا الله...ياااااااااااا الله...»

في لحظة أستعيد سمعي، وقدرتي على الإبصار، بل وشعوري بالإرهاق العضلي والنفسي، ليختلج الجسد الساكن تحتي اختلاجة خفيفة، يعقبها سعال الشهيق الأول، ثم ارتعاشة عينين كجناحي فراشة رقيقة، فدموع صامتة من عينين تتفتحان ربما للمرة الأولى لتمارسا الحياة!!

عادت صديقتي من الموت!!

وأنا شملني فيض النور!!

الآن أجلس على الأرض كأي بشري عادي، جسده من طين، وروحه سر من أسرار الإله لأمارس البكاء!!